

تعظيم الله تعالى نفسه ومقاصده العلية

بين الدلائل الشرعية والسنن الإلهية

EXALTING GOD ALMIGHTY HIMSELF AND HIS LOFTY PURPOSES BETWEEN THE LEGAL EVIDENCE AND THE DIVINE LAWS

المؤلف الأول ^(*)
قبلي بن هني
جامعة عمار ثليجي بالأغواط
مخبر الدراسات الإسلامية واللغوية
gueblibn@yahoo.fr

تاريخ الاستلام:	تاريخ القبول:
20--/--/--	20--/--/--

الملخص:

أجل ما يعني به باحث الشريعة الغراء من تحصيل مراد الله تعالى تقديم أعلى المقامات تحصيلًا، وهو تعظيم الله تعالى في نفسه ومعرفته المكلفين حقه الذي أوجبه على عباده. ولذا فكل مستبصر في الدلائل الشرعية والسنن الكونية يجد بديع الدلالات على هذا المقصد العظيم.

الكلمات المفتاحية: المقاصد ; الله ; تعظيم ; السنن

* (المؤلف المُرسَل.

Abstract:

For what the glorious Sharia scholar means by collecting the will of God Almighty to provide the highest attainable maqams, which is the glorification of God Almighty in Himself and the knowledge of those charged with his right, which He has entrusted to His servants. Therefore, every clairvoyant in the legal evidence and cosmic Sunnah finds Badi the connotations of this great destination.

Key Words: purposes; Allah ; exaltation; the way

المقدمة:

الحمد لله العظيم في كبريائه، والتعالي عن العوالم مستو فوق عرشه بأمره وحكمه، وصلى الله على نبيه محمد وآله وصحابته ومن اعتصم بسنته ووحد الله بشريعته، أما بعد:

فمن أعظم مقاصد الشريعة أن يعطى الله تعالى حقه من توحيده وتعظيمه، والاعتراف له بما هو أهله سبحانه، إذ كل له الوجود ملك وهو شاهد على وجوده عزل وجل. وقد جاءت الآيات الكونية والشرعية صادحة بهذا الحق، وواضحة بالطلب في تحصيل الحق له تعالى.

ولأن أصل الدين كله مبني على تعظيم الله وتوحيده، دار عليه المقصد الأعلى باعتباره: مقصد الخلق ومقصد التشريع، ومن ثم تقرر في النفوس والفطر وتحصل في العقول والنظر أن التعظيم لله تعالى عبادة عظيم. وهنا تكمن مقامات أهمية البحث وتجليات البواعث على تدبر الكتاب العزيز، فيما تعلق بتعظيم الله نفسه في الآيات البينات والدلائل الشاهدة. ويمكن أن تكون الإضافة آيلة في الجملة إلى أفراد الآيات المتعلقة بالتعظيم الرباني، وتعليقها بوجوه النداء الرباني في القرآن الكريم للناس والمؤمنين، بمعالم تشريعية شتى تقضي بإقامة هذا الحق الذي تفرد بالله تعالى في نفسه.

وتكمن أهمية هذا البحث في تمحيص الفكر لبلوغ الإدراكات السليمة في تقويم التصرفات وإظهار الخاصية المطلقة في منظومة الوجود، من حيث ربط عقيدة التعظيم بإظهار العبودية من حيث الأفراد، وتصحيح مسار من حيث التربية والتعليم، وإصلاح النظم من حيث سياسة المجتمع ومقومات الأفكار والمناهج فيه.

ومن ثمة اجتمع في مقروءاتي طلب الهدايات الإلهية والنبوية متبعاً في ذلك المنهج الاستقرائي والاستدلالي، أن أجمع مقالاً، وسمته بـ "تعظيم الله تعالى نفسه ومقاصده العلية في الدلائل الشرعية والسنن الإلهية". وإن كان ثمة من سبق في تدوين هذه المسألة وعناها بالتحقيق والتمحيص من جهة معينة لدى كل مؤلف، فثمة بحث منشور في مجلة

البيان العدد: 168- شعبان 1422هـ، بعنوان: "رسالة في تعظيم الله" للباحث أديب بن محمد المحيذيف. وجمع الباحث عبد العزيز الطريفي بحثا بعنوان: "تعظيم الله تعالى وحكم شاتمته" منشور في الانترنت عليه طبعة دار المنهاج، وللأستاذ الدكتور أحمد بن عثمان المزيد كتاب بعنوان: "تعظيم الله تعالى - تأملات وقصائد-"، طبعته دار الوطن للنشر سنة 1433هـ. وزيادة على هذه المراجع توصيل المسائل العقدية بالمقاصد المرعية في أصول التشريع التي بني عليها أصل التكليف.

وبناء على هذا الأهمية البالغة الهدف الأسنى المرجو بلوغه من عرض مسائل البحث هو تحديد عين الإشكالية التي رام البحث الجواب عنها، حيث يلزم طرح التساؤل التالي: ما هو المقصود من تعظيم الله تعالى، وما هي أعلى الغايات الموصلة إلى مقام العبودية الخالصة في ضوء تفعيل هذا المقصود العظيم؟ وما هي لوازم اعتبار الشواهد الربانية والشهادات العقلية لتحصيل هذا المقصود؟

وقد رسمت خطة تجمع متعلقات المعارف المنوطة بمحوري التأصيل العقدي والتحكيم المقاصدي، راجيا أن تكون هذه المباحث منهلا لمبتغي التحصيل والتوسع، وتمهيدا للناظرين فيها قصد التذليل والتسهيل، لأن غرضنا في البحث بالإشارة وتوجيه المهمات، فجاء الخطة بعد هذه المقدمة، كالتالي:

- أولا- توطئة بين يدي مقصود العبودية في تصرفات المكلفين.
- ثانيا- مفهوم تعظيم الله تعالى في المعنى الوضعي.
- ثالثا- بيان مقصود تعظيم الله تعالى في المراد الشرعي.
- رابعا- شواهد الآيات الربانية على تعظيم الله تعالى نفسه.
- خامسا- تعظيم الله تعالى أعظم مقصود في باب العبودية.
- سادسا- تعظيم الله تعالى في ضوء معاهد التنزيه وتحقيق الكمال.
- سابعا- تعظيم الله تعالى بين فحوى التنزيل وشهادة العقول.
- ثامنا- تعظيم الله تعالى متعلقاته في تصرفات المسلمين.
- خاتمة.

أولا- توطئة بين يدي مقصود العبودية في تصرفات المكلفين.

ليس للمخزون الدلالي للفظلة أو مصطلح معنى من دون اعتبار المقصود والإشارة إلى حقيقته في التكليف، فلا غرو أن يروم النظار تفسير العبادة وتقريب معناها بعبارات تعددت اعتباراتها، إلا أنها تجمع تحت مقصد التعظيم لله تعالى وحده على جهة الخضوع والذل لله تعالى مع المحبة والطوعية له إقرارا وتوحيدا، وإسلاما واستسلاما، إذ لا غرو أن "العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد النهاية، ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيتها. وقصارى ما يعرفه منها أنها محيطة به، ولكنها فوق إدراكه. فمن ينتهي إلى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال إنه عبده وإن قبل موطئ أقدامه، ما دام سبب الذل والخضوع معروفا وهو الخوف من ظلمه المعبود، أو الرجاء بكرمه المحدود¹ .. للعبادة صور كثيرة في كل دين من الأديان شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي الأعلى، الذي هو روح العبادة وسرها. ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه، والأثر إنما يكون عن ذلك الروح، والشعور الذي قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع، فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة"².

فلا مناص من هذا التلازم بين ثلاثة أقطاب: معرفة الخالق وتعظيمه مع معرفة حقه، ووجود لذة وثمره المعرفين في السلوك والعمل. يقول العلامة ابن تيمية: "من اعتقد الوجدانية في الألوهية لله سبحانه وتعالى، والرسالة لعبده ورسوله، ثم لم يتبع هذا الاعتقاد موجبة من الإجلال والإكرام .. كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه، وكان ذلك موجبا لفساد ذلك الاعتقاد، ومزيلا لما فيه من المنفعة والصلاح. إذ الاعتقادات الإيمانية تزكي النفوس وتصلحها، فمتى لم توجب زكاة النفس ولا صلاحها، فما ذاك إلا لأنها لم ترسخ في القلب، ولم تصر صفة ونعتا للنفس ولا صلاحا"³.

ولذلك كان لزاما على أهل العقول البحث في مسالك العبودية لتحقيق التعظيم على الوجه الذي رضيه الله تعالى لعباده من غير إفراط ولا تفريط، فكان من "علامات التعظيم الدالة على العبودية والاستكانة، خاصة بالله تعالى .. أن الله علم عباده طرقا يستقيم بها إيمانهم، وتنزل البركة في حياتهم الدنيا، وتتحقق بها مطالبهم، منها النذر لله في الشدة ونزول البلاء، والنداء باسمه عند كربة وضيق، وافتتاح كل عمل باسمه، والذبح له حين يرزقون

ولدا شكرا لله تعالى، وتسميتهم بأسماء يتجلى فيها التوحيد والعبودية، كعبد الله وعبد الرحمن وهبة الله وجاد المولى وعطاء الله، وأمة الله وعطية الرحمن. وتخصيص جزء من حواصل المزارع، وثمار البساتين باسم الله تعالى، وتخصيص جزء من المال والماشية، ونذره لله تعالى، وتعظيم الهدى والقلائد لبيت الله، وامتنال أوامره والانتفاء عن نواهيه في المأكل والمشرب والملبس. واعتقاد أن كل ما يصيبه من خير وشر ومجاعة ورخص وغلاء وصحة وسقم وفتح وعزيمة وسعد وشقاء، ومساعدة الحظ وتخلفه، وحزن وفرح، كله في قبضته .. إلى غير ذلك من علامات التعظيم وشعائره"⁴.

ثانياً- مفهوم تعظيم الله تعالى في المعنى اللغوي:

جاء في معاجم العربية في مادة (ع ظ م) أنها تعني الكبر والقوة والتفخيم، قال ابن فارس: "العين والظاء والميم أصل واحد صحيح يدلُّ على كِبَرٍ وَقُوَّةٍ. فالعِظَمُ: مصدر الشَّيْءِ العظيم. تقول: عَظُمَ يَعْظُمُ عِظْماً، وعَظَمَتُهُ أُنَا"⁵. وقال الرازي: "عَظُمَ الشَّيْءُ (بالضم) يَعْظُمُ عِظْماً .. أي كَبُرَ فهو عَظِيمٌ .. وَعُظُمَ الشَّيْءُ .. أَكْثَرَ وَمُعْظَمُهُ وَأَعْظَمُ الأَمْرُ وَعَظْمُهُ تعظيماً أي فَخْمُهُ"⁶.

وموئل أصل مادة (ع ظ م) يرجع إلى ما "كَبُرَ عظمه، ثم استعير لكل كبير، فأجري مجراه محسوساً كان أو معقولاً، عينا كان أو معنى.. والعظيم إذا استعمل في الأعيان فأصله: أن يقال في الأجزاء المتصلة، والكثير يقال في المنفصلة، ثم قد يقال في المنفصل عظيم، نحو: جيش عظيم، ومال عظيم، وذلك في معنى الكثير"⁷.

والعظيم من أسماء الله تعالى، ومعناه: "الجامع فجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد والبهاء الذي تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت في الصفة، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم. والله تعالى عظيم له كل وصف ومعنى يوجب التعظيم فلا يقدر مخلق أن يثني عليه كما ينبغي له ولا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يتثنى عليه عباده"⁸.

ثالثاً- بيان مقصود تعظيم الله تعالى في المراد الشرعي:

من مرادفات التعظيم وثمرته في النفوس: الخضوع والخشوع والتذلل والافتقار لله تعالى: وهو "الذي جاوز قدره وجل عن حدود العقول، حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته. والعظم في صفات الأجسام: كبر الطول والعرض والعمق، والله تعالى جل قدره عن ذلك"⁹. قال العلامة السعدي رحمه الله: "معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان:

■ أحدهما: أنه موصوف بكل صفة كمال، وله من ذلك الكمال أكمله، وأعظمه وأوسعها، فله العلم المحيط والقدرة النافذة والكبرياء والعظمة ... وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: "إن الله يقول الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما عذبتة"¹⁰، فله تعالى الكبرياء والعظمة، والوصفان اللذان لا يقدر قدرهما ولا يبلغ كنههما.

■ النوع الثاني: من معاني عظمته تعالى أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يعظم كما يعظم الله فيستحق جل جلاله من عباده أن يعظموه بقلوبهم، وألسنتهم، وجوارحهم وذلك ببذل الجهد في معرفته ومحبته، والذل له والإنكسار له، والخضوع لكبريائه، والخوف منه وإعمال اللسان بالثناء عليه، وقيام الجوارح بشكره وعبوديته .."¹¹.

وفي هذا المعنى ساق الإمام المروزي -في معنى الحياء- قوله رحمه الله: "إذا ثبت تعظيم الله في قلب العبد أورثه الحياء من الله والهيبة له فغلب على قلبه ذكر اطلاع الله العظيم ونظره بعظمته وجلاله إلى ما في قلبه وجوارحه، وذكر المقام غدا بين يديه وسؤاله إياه عن جميع أعمال قلبه وجوارحه، وذكر دوام إحسانه إليه، وقلة الشكر منه لربه فإذا غلب ذكر هذه الأمور على قلبه هاج منه الحياء من الله فاستحى الله أن يطلع على قلبه وهو معتقد لشيء مما يكره، أو على جارحة من جوارحه، يتحرك بما يكره فظهر قلبه من كل معصية، ومنع جوارحه من جميع معاصيه"¹².

والحاصل منه أن العابد لله حقيقة¹³ هو المعظم "لمعبوده، متأله خاضع ذليل له، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والخضوع والذل، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطي حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه .."¹⁴.

ولذلك كان من باب الوجوب العيني تصحيح العقيدة في الله تعالى، ونفي الخرافة والسفسطة والإعمال الوهم والخيال، فيما تعلق بذات الله تعالى ووجوده وربوبيته وأفعاله وأسمائه وصفاته وألوهيته. فيجب على كل عبد أن يتعرف على خالقه سبحانه حقيقة المعرفة، وأن يتعرف عليه بتوحيده والإخلاص له وحده، ويتعرف عليه بآياته والبراهين الكونية والسنن الإلهية الماثلة في العوالم المشاهدة، فكل واحد منها يدل على أنه الله الواحد المعظم سبحانه. يقول العلامة ابن تيمية: "يجب على من أراد أن يعرف الله تعالى المعرفة التامة، أن يفحص عن منافع جميع الموجودات"¹⁵.

رابعاً- شواهد الآيات الربانية¹⁶ على تعظيم الله تعالى نفسه:

لا تكاد تحصى شواهد القرآن الكريم والسنن النبوية الدالة على تعظيم الله تعالى والأمر به على سبيل العموم والنفوذ والاستمرار، فقد تكرر في الكتاب المجيد كثيراً تعظيم الله تعالى نفسه وصرف الأفتدة إلى هذا التعظيم بشتى الأساليب، استبصاراً وتكبيراً للخالق المعبود سبحانه، من أول آية نجد أن الله تعالى عظم نفسه بربوبية جميع العوالم، وأنها مالكتها وخالقها، وأنه المستحق للعبادة لأنهما أمران متلازمان شرعاً وعرفاً وكوناً وعقلاً. فكما أنه رب العالمين فقد استوجب له الحق في حمده وعبادته وحده، فلا غرو أنه "المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه، والفقراء إليه، وهو الغني عما سواه كما"¹⁷. قال العلامة ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6] "﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام"¹⁸.

وهذه "سورة الأنعام"¹⁹ بين يدي القارئ، وهي سورة كثيرة الأحكام والفوائد العلمية والعملية والسلوكية²⁰، وقد ابتدئها سبحانه بالحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور. قال الشيخ الطاهر بن عاشور: "الاقتصار في ذكر المخلوقات على هذه الأربعة، تعريض بإبطال عقائد كفار العرب فإنهم بين مشركين وصابئة ومجوس ونصارى، وكلهم قد أثبتوا آلهة غير الله. فالمشركون أثبتوا آلهة من الأرض، والصابئة أثبتوا آلهة من الكواكب السماوية، والنصارى أثبتوا إلهية عيسى أو عيسى ومريم وهما من الموجودات الأرضية، والمجوس وهم المانوية ألهوا النور والظلمة، فالنور إله الخير والظلمة إله الشر عندهم. فأخبرهم الله تعالى أنه خالق السماوات والأرض، أي بما فهم، وخالق الظلمات والنور"²¹.

ثم بيّن خلق الإنسان من طين وبين أنه يعلم السر والجهر، حتى قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 12، 13]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 18، 19].

فكل ما جاء من أفعاله سبحانه، دال على التعظيم، لأن الله تعالى قد استأثر بما أثنى به على نفسه على جهة الكبرياء والعظمة، التي استحق بها أن يكون المربوب الواحد والمعبود الفرد جلا شأنه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا زَبْطٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ لَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ * قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 59-65]. وقد ختم الله تعالى هذا الشوط بهذا الأسلوب فيه من الدلالة الواضحة على المقصود من إعظام أمر التوحيد والتعظيم لله تعالى والحذر من مخالفته بالكفر والجحود، قال العلامة ابن عطية في تفسيره: "وفي قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ..﴾ الآية، استرجاع لهم وإن كان لفظها لفظ تعجيب للنبي صلى الله عليه وسلم فمضمونها أن هذه الآيات والدلائل إنما هي لاستصراغهم عن طريق غيهم"²².

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 73]. ثم أكد سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَتَى تَوَفُّكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 95-99]. وما

بين هذه المقاطع والآيات تقرير للتوحيد وأمر بالاعتراف بحقه سبحانه، وقد فضح المشركين بقبح أعمال وشر تصرفاتهم وتقرر أوهامهم في نفوسهم. ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: 149].

ثم ختم السورة بكلمات عظيمة أمرا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقولها: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 162 - 165].

فائدة: وقد تأملت السورة فرأيت أمرا مهما، وهو أنه قد ناسب ورود قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]، وهو آية لها مدلول عظيم في مضامين هذه السورة العظيمة. وهي واقعة في وسط السورة تماما، إذ أن عدد آيات السورة (165) آية. وقد أورد الله تعالى في السورة ما يقتضى القوة العلمية المعرفة بالله تعالى في ربوبيته وانفراده بالأفعال الربانية، وهذا الجانب يلزم القوة النظرية المعرفة لجانب الحق الذي يستحقه سبحانه وتعالى حتى لا يقع العبد في الظلم، يقول الإمام الرازي في تفسيره: "الذين حصل لهم الأمن المطلق هم الذين يكونون مستجمعين لهذين الوصفين:

- أولهما: الإيمان وهو كمال القوة النظرية.

- ثانيهما: ولم يلبسوا إيمانهم بظلم وهو كمال القوة العملية"²³.

خامسا. تعظيم الله تعالى أعظم مقصود في باب العبودية:

معلوم لدى أئمة الفقه والعقائد أن القرآن الكريم قد اتفقت مقاصده على "إصلاح نوع الإنسان"²⁴ من وجوه شتى، وكان أهمها إصلاح منهج التفكير الإنسان وتسليم مقوماته في الوجود من شوائب الشبهات، وعلى هذا نيطة آياته الكريمة إما على جهة الإجمال والإشارة، أو على جهة التفصيل والبيان، تؤول كلها في الجملة إلى حفظ نظام البشرية ومقومات العمران الإنساني على وجه العموم.

هذا إذا التزم طبعاً بالمقصد الكلي الأولي، عبودية الله تعالى والاستقامة على شريعة التي جاءت للإصلاح العام والشامل المستمر على سبيل الدوام والتحصيل للخير ودفع الضرر، وهو ما أجمع عليه نظار الشريعة من أن "الشريعة جاءت بتصليح الفكرة وطريق التفكير وإعلان الحق بين الناس حتى يدخلوا في نظام الجامعة الإسلامية أفراداً وجماعة متحققين لا متوهمين نافين عن أنفسهم التخيلات والريب في أحقيتها، إذ لا مندوحة للذهن في مبادئ الاعتبارات إلا اعتبارها الأجدى في قيام الدين ونصرته، ونفي الشكوك عنه والشبه، وبذلك تلتئم لحمه أطيافها تحت لوائها الموروث عن خاتم المرسلين"²⁵.

فموافقة المقصد الكلي تؤول لا محالة إلى حفظ نظام الكون وما جلب له من وسائل الإعمار، وإلا فقد أخبر الله تعالى في كثير من المواطن أن ظلم القرى وترفها وعتوها وبغها بالإلحاد والشرك والظفر والظلم سبب لزوالها وهلاكها ودمارها البتة، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: 11]، وقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَغَتْ مَسَاكِينُهَا لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 58]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصَرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: 26-28].

والسبب واضح أن تعظيم الله تعالى سبب للرحمة وإنزال البركات، وأن الجحود لعظمة الله تعالى والحييف عنها بظلم الباري في حقه والعدول عنه سبب للهاوية، كما أخبر به سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 96-99].

وقد جاء صريحاً مبيناً هذا الحق في حديث معاذ رضي الله عنه، حيث قال: كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له عفير. فقال: "يا معاذ هل تدري حق الله على عباده وما حق العباد على الله". قلت: الله ورسوله أعلم. قال: "فإن حق الله على العباد أن

يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً". فقلت: يا رسول الله أفلا أبشر به الناس، قال: لا تبشرهم فيتكلموا"²⁶. "فحق الله تعالى هو توحيدهِ وعدم الإشراك به، [وكونه] أول واجب على العبيد، نعني به قبل النظر والفكر في الأفق والحسيات على احتمال القول به من بعده"²⁷.

والحاصل منه أن أعظم المقاصد الإصلاحية في المنهج الرباني هو إثبات الحق الأعظم لله تعالى في تعظيمه وتكبيره عما سواه، هذا حتى يسلم العبد من الآفات ويكتب له الأمن والاهتداء في الدارين. فقد قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]، فمن حرق حقه وعظم وأثمر تعظيم الله تعالى في نفسه بأن اتفق في قلبه موافقه مقصوده من إيجاده وتكليفه، فقد نجا بحول الله تعالى ورجمته، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم في الآية بأنه الشرك المنفي للتعظيم. فقد جاء في الصحيح من حديث علقمة، عن عبد الله رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أين لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه ليس بذلك، ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ﴾ [لقمان: 13] لظلم عظيم"²⁸.

ولذلك كتب الله على كل من تلبس بالظلم والترف أنه تحمّل ما يدعو إلى الأسف المنوط بالعذاب الشديد وما اكتسب من الإثم الباعث على الانتقام السريع، كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]، ﴿فَلَمَّا أَسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: 55]. ومعنى (أسفونا) "روى الضحّاك عن ابن عباس: أي غاظونا وأغضبونا. وروى عنه علي بن أبي طلحة: أي أسخطونا"²⁹. قال الزمخشري: "ومعناه: أنهم أفرطوا في المعاصي وعدوا طورهم، فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا، وأن لا نحلم عنهم"³⁰.

ثم ينبغي أن نلاحظ فائدة مهمة هنا من تكرار التعريف بأفعال الله تعالى وتبيين ربوبيته للعباد الذي "هو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الديني، فليس لإقناع المعطلين والمشرّكين بربوبيته تعالى فقط. بل أكثره لإقامة الحجة به على بطلان شرك العبادة بدعاء غير الله تعالى لأجل التقرب إليه بأولئك الأولياء وابتغاء شفاعتهم عنده"³¹. وذلك معنى

التعظيم المطلق للباري سبحانه الذي جاء ببيانه القرآن الكريم والحث على معرفته وطلب أثره في النفوس، لأن "القرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والأديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول إلى العلم والهدى في الدين، وألا يكتفوا بما كان عليه آبائهم وأجدادهم من ذلك، فإن هذا جناية على الفطرة البشرية والعقل والفكر"³².

سادس- تعظيم الله تعالى في ضوء معاهد التنزيه وتحقيق الكمال:

تقرر في الذهن مما سبق أننا أن العبودية من مقام الطلب، وهي متلازمة مع التعظيم لله تعالى والاعتراف بربوبيته، الذي يُعد من مقام المعرفة، والقلب الجامع بينها قد حصل مقام العارف المحب الخاضع، وصدق عليه القصد في بلوغ المنزل المحمود إلى تنسك بالسنن النبوية واتبع الهدي المحمدي الصافي.

قال أبو جعفر الطبري في كتاب (التبصير في معالم الدين): "لن يستحق أحد أن يقال له: إنه بالله عارف المعرفة التي إذا قارنها الإقرار والعمل استوجب به اسم الإيمان، وأن يقال له: إنه مؤمن، إلا أن يعلم بأن ربه صانع كل شيء ومدبره، منفرداً بذلك دون شريك ولا ظهير، وأنه الصمد الذي ليس كمثله شيء: العالم الذي أحاط بكل شيء علمه، والقادر الذي لا يعجزه شيء أراده، والمتكلم الذي لا يجوز عليه السكوت. وأن يعلم أن له علماً لا يشبهه علوم خلقه، وقدرة لا تشبهها قدرة عبادته، وكلاماً لا يشبهه كلام شيء سواه. وأنه لم يزل له العلم والقدرة والكلام .."³³.

فتحصيل التعظيم في النفوس من تحصيل ثمرته وتمحيص الأفتدة الزكية التي حصلت المعرفة، وحققت الطلب، يقول ابن القيم رحمه الله: "فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى في القلب، وأعرف الناس به: أشدهم له تعظيماً وإجلالاً، وقد ذم الله تعالى من لم يعظمه حق عظمته، ولا عرفه حق معرفته، ولا وصفه حق صفته. قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: 13]، قال ابن عباس ومجاهد: لا ترجون لله عظمة. وقال سعيد بن جبیر: ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته؟ وقال الكلبي: لا تخافون لله عظمة. قال البغوي: والرجاء بمعنى المخوف. والوقار العظمة. اسم من التوقير. وهو التعظيم. وقال الحسن: لا تعرفون لله حقاً، ولا تشكرون له نعمة. وقال ابن كيسان: لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم إياه خيراً. وروح العبادة: هو الإجلال والمحبة، فإذا تخلص أحدهما عن الآخر فسدت، فإذا اقترن بهذين الثناء على المحبوب المعظم، فذلك حقيقة الحمد، والله سبحانه أعلم"³⁴.

وإنه لا ينفك عن قلب عاقل أن الله تعالى عظيم كبير متعال، وأنه وصف نفسه بما يليق به سبحانه، ف"الواجب على المسلم إذا سمع وصفاً وصف به خالق السماوات والأرض نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم أن يملأ صدره من التعظيم، ويجزم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والجلال والشرف والعلو ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين.

فيكون القلب منزهاً معظماً له جلّ وعلا، غير متنجس بأفذار التشبيه، فتكون أرض قلبه قابلة للإيمان والتصديق بصفات الله التي تمدّح بها، وأثنى عليه بها نبيه صلى الله عليه وسلم، على غرار قوله: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» [الشورى: 11]. والشركل الشر في عدم تعظيم الله، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فيضطر المسكين أن ينفي صفة الخالق بهذه الدعوى الكاذبة الخائنة»³⁵.

ولهذا استوجب شرعاً وعقلاً وفطرة وعرفاً أن "العابد معظم لمعبوده متأله له، خاضع ذليل له، والربّ تبارك وتعالى وحده هو الذي يستحقّ كمال التعظيم والإجلال والتأله والخضوع والدّلّ، وهذا في خالص حقّه، فمن أقبح الظلم أن يعطي حقّه لغيره، ويشرك بينه وبينه فيه ...

وكذلك ما قدره حقّ قدره من قال: إنّه لم يرسل إلى خلقه رسولاً ولا أنزل كتاباً، بل نسبه إلى ما لا يليق به ولا يحسن منه، من إهمال خلقه وتركهم سدى وخلقهم باطلاً عبثاً..

وكذلك ما قدره حقّ قدره من قال: إنّه يعاقب عبده على ما لا يفعله العبد ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيها البتة؛ بل هو نفس فعل الربّ. جلّ جلاله؛ فيعاقب عبده على فعله هو، وهو سبحانه وتعالى الذي جبر العبد عليه، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق المخلوق..»³⁶.

ولا أرى بعد هذا التفصيل مزيد حاجة للإضافة والتفصيل أكثر، وإلا طال المقام، ولعل أقرب مثال ينتفع به في هذا المبحث أن العبد المخالف لشرعية الرحمن تختلف مقاصده وتنوع ملابسات مخالفته وتعدد مراتبها في الإثم، فشتان بين الخاطئ والمخطئ. وليس أقل ما يمكن العبد إدراكه "بأن يتواضع لله تعالى ويعتقد التعظيم لربه، والتواضع والتعظيم عمل القلب، وآلته العقل"³⁷.

سابعا- تعظيم الله تعالى بين فعوى التنزيل وشهادة العقول:

تأسيس النظر في مدركات العقول لا تقبل التردد في فلسفة التصورات ومعيارية الفكر على التصرفات، وكل تلك الاعتبارات المفاهيمية والاصطلاحية معتبرة في مقامات التعظيم الرباني، والحكم عليها بالصواب والخطأ من منظومة الاستدلالات والتخريج على أصول العلم من خطابات الشارع التي يدرکہا ابتداء كل عاقل صرف، لأن "العقل نور جعله الله في قلبك ليكشف لك عن الأشياء الموجودة والحقائق الواقعة ولتفهم به عن الله ورسوله، هذه وظيفة العقل، فلو أردت منه أن يريك كل ما تحبه وتتخيله من المعدومات فلا يجد إلى ذلك سبيلاً، اللهم إلا إذا كان على سبيل الوهم والخيال [وهما] لا يصلحان للمعرفة الصحيحة والعقيدة السليمة"³⁸.

ومن جميل الإشارات ما أفاد به الحارث المحاسبي من تفسير ماهية العقل وأنه على معاني ثلاثة، وقال في معنى العقل الثالث: "هو البصيرة والمعرفة بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة، ومنه العقل عن الله تعالى: فمن ذلك أن تعظم معرفته وبصيرته بتعظيم قدر الله تعالى وبقدر نعمه وإحسانه، وبتعظيم قدر ثوابه وعقابه لينال به النجاة من العقاب والظفر بالثواب، فإذا كان لله معظما كان لله مجلا هائبا..."³⁹، إلى آخر كلامه رحمه الله.

ولأجل تمحيص ذلك في واقع الناس، تجد أن بينهم تفاوتاً في تحقيق المطلوب، لأنهم متفاوتون في إدراكاتهم ومقتضى تصوراتهم وطبائعهم، من حيث الفهم وتحصيل الملكة فيه، لكن اتفقت فطرتهم جميعاً على تنزيه الخالق وإثبات الكمال المطلق للباري سبحانه وهذا راجع في تأصيل منظومة التفكير الذي خص به نوع الإنسان، وقد حققه العلامة الكندهلوي بقوله:

"الأمور التي يمتاز بها الإنسان من سائر أفراد الحيوان كثيرة جداً لكن جماع الأمر وملاكه خصلتان:

- أحدهما زيادة القوة العقلية، ولها شعبتان:
 - شعبة غائصة في الارتفاقات لمصلحة نظام البشر واستنباط دقائقها.
 - وشعبة مستعدة للعلوم الغيبية الفائضة بطريق الوهب.
- وثانيهما براعة القوة العملية، ولها أيضاً شعبتان:

- شعبة هي ابتلاعها للأعمال من طريق بلعوم اختيارها وإرادتها، فالهائم تفعل أفعالا بالاختيار، ولا تدخل أفعالا في جدر أنفسها، ولا تتلون أنفسها بأرواح تلك الأفعال، وإنما تلتصق بالقوى القائمة بالروح الهوائي فقط، فيسهل عليها صدور أمثالها..
- وشعبة: هي أحوال ومقامات سنية، كمحبة الله والتوكل عليه مما ليس في الهائم جنسها⁴⁰.

وتبقى كلية الثالثة نستدركها على الإمام الكندهلوي، ذات شعبة واحدة، هي: أنه "كلما كان العهد بالرسول أقرب كان الصواب أغلب"⁴¹، لأن مقامات الصلاح العقلية والسلامة السلوكية والرعاية الفقهية في النفوس أنقى من أي زمن كان بعد هذه الطبقة الطيبة الزكية، فهُم العلماء العارفون بالله تعالى حقا وصدقًا. وليس من نافلة القول في هذا المقام أننا نؤكد ما قرره العقلاء وما اتفق عليه النظار والمتفكة وأصحاب الحديث أن الوجود تختلف معطيات الإيجاد فيه، ومن لازمه اختلاف الحكم باختلافها، فحق واجب الوجود أكد الحقوق على الإطلاق كما دلت على ذلك البراهين القطعية والأدلة العقلية والسمعية، إذ أن "الآيات المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه .. إذا تصفحت وجدت على ثلاثة أنواع:

- إما آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية.
- وإما آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع.
- وإما آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعاً"⁴².

وجماع ذلك بداهة مرتشف من معلمة التفكر والتأمل، لأنه "إذا تأمل الإنسان بفكر عميق وعقل متدبر في بعض جزئيات هذا الكون المسخر لمصالحه، والتي عليها استقرار حياته، كفاه ذلك دليلاً واضحاً وحجة بينة على أن هذا الكون مخلوق لخالق حكيم قدير"⁴³. ودليل ذلك أن "يقوم دليل العناية على أن يفكر الإنسان جيداً وينظر فيما يحيط به من حماية وعناية ربانية ونعم لا تعد ولا تحصى، وقد خلق الله من أجله أكثر الموجودات، بل جميع ما في السموات وما في الأرض .. ويقوم دليل الاختراع على النظر الدقيق في الموجودات والمصنوعات، التي تدل لا على وجود الخالق فحسب، بل على قدرته وعظمته ووحدانيته، كأثر يدل على المؤثر، وصفة تدل على الصانع الحكيم"⁴⁴.

وأما دلالة الاختراع، فيدخل فيها وجود الحيوان كله، ووجود النبات ووجود السموات، وهذه الطريقة تنبني على أصلين، موجودين بالقوة في جميع فطر الناس:

■ أحدهما: أن هذه الموجودات مخترعة. وهذا معروف بنفسه في الحيوان والنبات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: 73] الآية. فإننا نرى أجسامًا جمادية، ثم تحدث فيها الحياة، فنعلم قطعًا، أن هاهنا موجدًا للحياة ومنعمًا بها وهو الله تبارك وتعالى..

■ وأما الأصل الثاني: فهو أن كل مخترع فله مخترع، فيصح من هذين الأصلين أن للموجود فاعلاً مخترعاً له، وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات.

ولذلك كان واجباً على من أراد أن يعرف الله حق معرفته، أن يعرف جواهر الأشياء، ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع، ولهذا أشار تعالى وتقدس بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 185] وكذلك أيضاً من تتبع معنى الحكمة في موجود موجود؛ أعني معرفة السبب الذي من أجله خلق، والغاية المقصودة به، كان وقوفه على دليل العناية أتم. فهذان الدليلان هما دليلا الشرع"⁴⁵.

ومن خلال هذا المنطق وجب أن يختص الله تعالى بالمطلقية في: وصف الكمال وجلال الحاكمية، قدرة التصرف وعموم الإرادة وشمول العلم، وحسن التدبير وخاصة الإنعام، ولما كان كذلك سبحانه انفرد بحق العبودية المطلقة، وهذه كلها من لوازم التعظيم للواحد سبحانه. فكل من أشرك في التصرف والعلم والحق معه غيره فقد أخل بالتعظيم الذي لا ينبغي أنه يكون إلا له وحده سبحانه.

ثامنا- تعظيم الله تعالى ومتعلقاته في تصرفات المسلمين:

وقد تناولت فيه فرعان من حيث التعلق:

الأول- تجلياته في الذكر بالقلب واللسان:

اتفق كلمة أهل العبادة والصلاح أن الذكر (الشرعي) من أجل موارد العبودية، لما فيه من إظهار الذل مع المحبة، توحيدا وتسليما له سبحانه، فهو من أكمل العبادات التي لها

تعلق بإيمان العبد وعقيدته، لأن "العبادة تتضمن كمال الحب وكمال التعظيم، وكمال الرجاء والخشية والإجلال والإكرام"⁴⁶.

وقد جاء في الحديث ما يناسب هذا السياق ويزيده توضيحاً، فقد روى أبو داود من حديث عوف بن مالك الأشجعي، قال: قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة، فقام فقرأ سورة البقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، قال: ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: "سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة"⁴⁷. قال السندي رحمه الله تعالى: "الجبروت والملكوت هما مبالغة الجبر، وهو القهر. والمملك وهو التصرف، أي صاحب القهر والتصرف البالغ كل منهما غايته، والكبرياء قيل: هي العظمة والمملك، وقيل: هي عبارة عن كمال الذات وكمال الوجود، ولا يوصف بها إلا الله تعالى"⁴⁸. فاجتمع في هذا الحديث بيان الوصف وما ينبغي له من الحق، فتعظيم الله تعالى قد اجتمع بالقلب واللسان والجوارح في حال التعبد، وذلك من أعظم العبادات ألا وهو الركوع. الذي هو دليل خضوع القلب والجسد مع اللهج باللسان إقراراً لله تعالى بالعظمة والاعتراف له بأنه العظيم وحده.

وكل هذا راجع في حقيقة التعلق أن القلب أثبت لله تعالى أسماء وصفاته التي قام مقتضاه في النفس، فأثرت في القلب واللسان والجوارح مسعى التصديق والإيمان، قال العلامة ابن القيم رحمه الله: "والأسماء الحسنى والصفات العلاء مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، أعنى من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح"⁴⁹.

وقد اجتمعت كل هذه المعاني في الذكر، وعلى غرار ذلك قسم العلماء الذكر قسمين، باعتبار إثبات الحق لله تعالى وإظهار تعظيمه:

■ الأول: "ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته والثناء عليه بهما وتزيمه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى، وهذا أيضاً نوعان:

- (أحدهما): إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر، وهذا النوع هو المذكور في الأحاديث، نحو: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده ولا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ونحو ذلك ..

- (الثاني): الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته، نحو قولك: الله عز وجل يسمع أصوات عباده، ويرى حركاتهم، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم .. ونحو ذلك. وأفضل هذا النوع، الثناء عليه بما أثنى به على نفسه، وبما أثنى به رسول الله صلى الله عليه وسلم، من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل. وهذا النوع أيضا ثلاثة أنواع: حمد وثناء ومجد ..

■ الثاني: ذكر أمره ونهيه وأحكامه، وهو أيضا نوعان:

- (أحدهما): ذكره بذلك إخبارا عنه أمر بكذا، ونهى عنه كذا، وأحب كذا، وسخط كذا، ورضي كذا.

- (الثاني): ذكره عند أمره فيبادر إليه وعند نهيه، فيهرب منه فذكر أمره ونهيه شيء، وذكره عند أمره ونهيه شيء آخر.

فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر فذكره أفضل الذكر وأجله وأعظمه⁵⁰.

وقد عدّ الإمام ابن القيم للذكر قرابة مائة فائدة⁵¹، وقد أورد قوله صلى الله عليه وسلم: "وأمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله"⁵². ثم قال رحمه الله: "فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة، لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لهجا بذكره. فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غفل وثب عليه وافترسه. وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله تعالى، وتصاغر وانقمع، حتى يكون كالوصع والذباب"⁵³.

ولعل أقرب مثال من معاهد الذكر إلى بعد القرآن الكريم، الذكر الذي يتضمن إثبات الألوهية الملزمة لتعظيم الله تعالى وتمجيده وتزيهه سبحانه، وقد جمع ذلك كله في كلمتين: سبحان الله وبحمده، وسبحان الله العظيم. يقول الشيخ ابن تيمية رحمه الله: "التسبيح فيه نفي السوء والنقائص المتضمن إثبات المحاسن والكمال، والحمد إنما يكون على المحاسن. وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والإكرام إذ ليس كل معظم محبوباً محموداً، ولا كل محبوب محموداً معظماً. وقد تقدم أن العبادة تتضمن كمال الحب

المتضمن معنى الحمد وتتضمن كمال الذل المتضمن معنى التعظيم ... التسبيح والتحميد يتضمن التعظيم، ويتضمن إثبات ما يحمد عليه وذلك يستلزم الإلهية فإن الإلهية تتضمن كونه محبوباً، بل تتضمن أنه لا يستحق كمال الحب إلا هو. والحمد هو الإخبار عن المحمود بالصفات التي يستحق أن يحب فالإلهية تتضمن كمال الحمد. ولهذا كان (الحمد لله) مفتاح الخطاب .. و(سبحان الله) فيها إثبات عظمته .. ففي قوله (سبحان الله وبحمده) إثبات تنزيهه وتعظيمه وإلهيته وحمده⁵⁴.

ولعل من أقرب الحكم في الجمع بين التسبيح والحمد في الذكر، هو تمحيص مقام العبودية في ذات الله تعالى المستحق للتعظيم والتنزيه، مع الثناء والإقرار بالفضل ونسبة الإنعام لذي الجلال والكمال تعالى. وعلى هذا الأصل استحق العابد وصف العبودية⁵⁵، وخاصة إذا كان على الاستقامة الدائمة، وأما ما يدركه من المخالفة فهي على جهة الجهالة والغفلة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: 17]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 119]. أو كان من قبيل الصغائر واللمم كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: 32].

وقد جاء في فقه السلف التفريق بين مقاصد المخالفين، ومن ذلك ما رواه أبو نعيم في الحلية بسنده عن سنيد بن داود عن ابن عيينة، قال: "من كانت معصيته في الشهوة فارج له التوبة، فإن آدم عليه السلام عصى مشتهياً فغفر له، وإذا كانت معصيته في كبر فاخش على صاحبه اللعنة فإن إبليس عصى مستكبراً فلعن"⁵⁶. وهذا من جميل معرفتهم بالنفس ودقيق علمهم بمقاصدها وأهواءها وضرر كل منها.

بل ولا يزالون يتتبعون حركات النفس ويقطعون كل ذريعة تفتح باب الانتقاص أو الإنقاص من حق البارئ، حتى أنك تراهم يعظمون الله تعالى حتى في تحقيق معالم وآداب التدوين، فقد التزم فيها السلف تعظيم الله تعالى، فكانوا يهون أن يكتفي الكاتب بالحروف مما تعلق بحق الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وحق صحابته المكرمين رضي الله عنهم. فلا يجوز كتاب [تع] بدل [تعالى]، كما اصطلاح عليه بعض المتأخرين. قال الشيخ بكر أبو زيد: "هو اصطلاح فاسد، بل بعض هذه المصطلحات في جانب التمجيد والتقديس لله

سبحانه وتعالى، وفي جانب الصلاة والسلام على أنبياء الله ورسله، وفي جانب الترحم والترضي على السلف، جميعها مصطلحات فاسدة ليس من الأدب استعمالها، ولما في بعضها من معنى قريب لا يجوز، وإن كان غير مراد، فليجتنب. وعلى المسلم احتساب ذكر هذه الألفاظ المباركة خطأ ونطقاً، لما في ذلك من الأجر الكبير، والثواب العريض⁵⁷.

الثاني- تجلياته في الإيمان بالقضاء والقدر:

إذا كان القضاء شرعاً هو "إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال". وعرف القدر بأنه "إيجاد الله تعالى الأشياء على قدر مخصوص، وتقدير معين في ذواتها وأحوالها طبق ما سبق به العلم وجرى به القلم"⁵⁸. فلا غرو أن يكون هذا الفعل الرباني قد اشتمل على أربعة معالم حتى يكتنفه الكمال المطلق الذي يستحق الله تعالى به التعظيم:

- الأول- علم الله تعالى المطلق، كما قال سبحانه: ﴿تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12].
- الثاني- كتابة الشاملة كل ما هو كائن إلى يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: 70].
- الثالث- الإرادة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].
- الرابع- الخلق، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين:

- فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علیم بالخلق، وهم عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلاً وأبداً، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والأجال، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق ..
- وأما الدرجة الثانية: فهي مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، وهو: الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون، إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه ما لا يريد، وأنه سبحانه على كل شيء قدير من

الموجودات والمعدومات. فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره، ولا رب سواه.

ومع ذلك، فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته. وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد⁵⁹.

فالدرجة الأولى تتضمن ركنين: الأول: الإيمان بعلمه القديم المحيط بجميع الأشياء .. فكل ما يوجد من أعيان وأوصاف ويقع من أفعال وأحداث فهو مطابق لما علمه الله عز وجل أزلاً. والآخر: أن الله كتب ذلك كله وسجله في اللوح المحفوظ، فما علم الله كونه ووقوعه من مقادير الخلاق وأصناف الموجودات وما يتبع ذلك من الأحوال والأوصاف والأفعال ودقيق الأمور وجليها قد أمر القلم بكتابته⁶⁰.

والدرجة الثانية تتضمن ركنين: الأول: "الإيمان بعموم مشيئته تعالى، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .. والآخر: الإيمان بأن جميع الأشياء واقعة بقدرة الله تعالى، وأنها مخلوقة له؛ لا خالق لها سواه، لا فرق في ذلك بين أفعال العباد وغيرها..⁶¹

فلا يشك عاقل -والحال هذه- أن يكون من اتصف بالعلم المطلق للأشياء كلها بمعرفة لا يعزب عنه منها شيء، وأنه قد كتب كل شيء في كتاب عنده سبحانه لا يغادره شيء البتة، وأنه قد أراد وشاء ما هو كائن لا يخرج عن إرادته ومشيئته شيء، أنه الموصوف بالكمال المطلق، وليس هو إلا الله الخالق المدبر وحده لا غير، فقد اجتمع له بذلك سبحانه مقتضى التعظيم ولازمه وسببه وموجبه، وليس لمدح حجة ولا برهان بعد ذلك.

وعليه فإن الواجب على كل مسلم أن يعلم أن "تعظيم الرب عز وجل التعظيم الواجب له سبحانه، باعتقاد شمول علمه، ونفوذ مشيئته، وعموم خلقه جل وعلا لكل شيء"⁶²، وهذه أجل ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر، حيث تُصحح بها العقيدة، وتُسلم للعظيم سبحانه الأفتدة، وتنكسر عن بابه عز وجل الخواطر والرقاب، ويبقى العبد جامعاً في قلبه بين الخوف والرجاء مشقاً على نفسه بالتوكل والإنابة إليه سبحانه.

ومن أعظم مواقف السيرة العطرة التي أظهر فيها النبي صلى الله عليه وسلم تعظيم الله تعالى والإيمان بقدره، وإظهار التوكل عليها موقنا بما عنده سبحانه، في جوابه زيدا لما قفلا من الطائف، وقد أصابهما من أهلها شرا واعتراضا -بل كان من أشد الأيام على النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته-⁶³. قال زيد بن حارثة رضي الله عنه: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك -يعني قريشا-، وخرجت تستنصر فلم تنصر -يعني الطائف-؟، فقال: "يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه"⁶⁴.

وفي هذا الحدّث عبرة عظيمة تدل على قوة يقين النبي صلى الله عليه وسلم في نصر الله وتعزيزه إياه، وهذا التوكل واليقين من النبي صلى الله عليه وسلم من التعظيم الخالص لله تعالى، وهو الذي ينبغي أن يدركه كل مؤمن بالله تعالى مسلم بشريعته مستسلم لأمره وحكمه تعالى.

خاتمة:

- وفي ختام هذا العرض خرجت بجملة من النتائج أسوقها مرتبة وفق مجيئها في البحث:
- (1) الموفق السعيد من وقف على معالم التعظيم لله تعالى، بحركة قلبه قولاً وفعلاً، وأثمرت فجوارحه ولسانه معنى التصديق والتسليم، حتى يكون عبداً لله طواعية لا كرها.
 - (2) أن تعظيم الله تعالى من دلائل التوحيد والإخلاص لله تعالى الباعث على فعل الخيرات وعمل الصالحات واستسهال القربات.
 - (3) تعظيم الله تعالى دليل صحة العبودية التي لأجلها خلق الله الإنسان وحرره من عبودية هواه.
 - (4) أعظم المقاصد الشرعية تعظيم الله تعالى لتعلقها بتصحيح العبودية وثمرتها الوافرة في اكتساب العبد ملازمة التقوى والخلال الحميدة.
 - (5) من مقتضيات التحرير لمتعلقات تعظيم الله تعالى اعتقاد التنزيه وتحقيق وجوه الكمال. كما نزلت به النصوص اقراراً وشهدت به العقول اعترافاً.
 - (6) تعظيم الله تعالى يتجلى في جميع المقامات السامية، فيثمر في القلب اليقين بأن الله تعالى أكبر من كل شيء فلزم أن يؤمن بقضائه وقدره الذي لا يصيبه منه إلا الذي كتب له. وأن يدوم ذكره بالتهليل والتكبير والتسبيح والحمد والتمجيد حتى يكتب عند الله تعالى من الذاكرين والذاكرات.

تم المقصود والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

- (1) إعلام الموقعين عن رب العالمين لمحمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ) قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان. دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، 1423هـ.
- (2) الاقتصاد في الاعتقاد لمحمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت 505هـ). وضع حواشيه: عبد الله محمد الخليلي. دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان. الطبعة: الأولى، 1424هـ.
- (3) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار لأبي الحسين العمراني ليحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليميني الشافعي (المتوفى: 558هـ). المحقق: سعود بن عبد العزيز الخلف. أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، 1419هـ.
- (4) التبصير في معالم الدين لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ). المحقق: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل. دار العاصمة. الطبعة: الأولى 1416هـ.
- (5) التحرير والتنوير وهو المسعى ب"تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ). دار التونسية للنشر- تونس سنة: 1984هـ.
- (6) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ) المحقق: هشام سمير البخاري الناشر: دار عالم الكتب، الرياض السعودية الطبعة: 1423هـ- 2003م.
- (7) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ). دار المعرفة- المغرب. الطبعة: الأولى، 1418هـ.
- (8) الصارم المسلول على شاتم الرسول لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس. تحقيق: محمد عبد الله عمر الحلواني، محمد كبير أحمد شودري. دار ابن حزم- بيروت. الطبعة الأولى، 1417هـ.
- (9) الصحيح لأبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت -دط -دت.
- (10) الصحيح لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي تحقيق: د. مصطفى ديب البغا الناشر: دار ابن كثير، اليمامة- بيروت الطبعة الثالثة، 1407- 1987م.
- (11) العقل والنقل عند ابن رشد لأحمد محمد أمان بن علي جامي علي (المتوفى: 1415هـ). الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. الطبعة: السنة الحادية عشرة- العدد الأول- غرة رمضان 1398هـ.
- (12) العقيدة في الله لعمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي. دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن.
- (13) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل لمحمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جارا لله (المتوفى: 538هـ). دار الكتاب العربي- بيروت. الطبعة: الثالثة- 1407هـ.

- (14) الكشف المبدي لتمويه السبكي لمحمد بن حسين بن سليمان بن إبراهيم الفقيه (المتوفى: 1355هـ). دراسة وتحقيق: صالح بن علي المحسن، أبو بكر بن سالم شهبال. دار الفضيحة- الرياض. الطبعة: الأولى 1422هـ.
- (15) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية- لبنان الطبعة: الأولى- 1413هـ. 1993م.
- (16) النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: 606هـ) تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي الناشر: المكتبة العلمية- بيروت، 1399هـ- 1979م.
- (17) الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا القلموني الحسيني (المتوفى: 1354هـ). دار الكتب العلمية- بيروت. الطبعة: الأولى، 1426هـ.
- (18) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: 728هـ). مجموعة من المحققين- مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. الطبعة: الأولى، 1426هـ.
- (19) تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (المتوفى: 294هـ) المحقق: د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي. مكتبة الدار- المدينة المنورة. الطبعة: الأولى، 1406هـ.
- (20) تفسير أسماء الله الحسنى لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: 1376هـ) المحقق: عبيد بن علي العبيد. الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. الطبعة: العدد 112- السنة 1421/ 33هـ.
- (21) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية 1420هـ- 1999م.
- (22) تفسير المنار لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين القلموني الحسيني(ت1354هـ) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة: 1990م.
- (23) حاشية السندي على سنن النسائي لمحمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (ت 1138هـ). مكتب المطبوعات الإسلامية- حلب. الطبعة: الثانية، 1406هـ.
- (24) سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الناشر: دارالكتاب العربي. بيروت -دط- دت.
- (25) سنن أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي المحقق: مكتب تحقيق التراث الناشر: دار المعرفة ببيروت الطبعة : الخامسة 1420هـ.
- (26) سنن الترمذي أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك (ت 279هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (ج 1، 2) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج 3) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر

- الشريف (ج 4، 5) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر الطبعة: الثانية 1395هـ- 1975م.
- (27) شرح العقيدة الواسطية، ويليهِ ملحق الواسطية لمحمد بن خليل حسن هراس (المتوفى: 1395هـ) ضبط نصه وخرَّج أحاديثه ووضع الملحق: علوي بن عبد القادر السقاف الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع الخبر بالسعودية الطبعة: الثالثة، 1415هـ.
- (28) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية لمحمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: 1188هـ). مؤسسة الخافقين ومكتبتها- دمشق الطبعة: الثانية- 1402هـ.
- (29) ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه للمحاسي للحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (ت 243هـ) المحقق: حسين القوتلي، دار الكندي، دار الفكر- بيروت. الطبعة: الثانية، 1398هـ.
- (30) مباحث العقيدة في سورة الزمر لناصر بن علي عايض حسن الشيخ. مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، 1415هـ.
- (31) مجموع الفتاوى لتقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ال حراني، أبي العباس المحقق : أنور الباز- عامر الجزار الناشر: دار الوفاء الطبعة : الثالثة، 1426هـ- 2005 م.
- (32) مختار الصحاح لزين الدين أبي عبد الله محمد الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ) المحقق: يوسف الشيخ محمد الناشر: المكتبة العصرية- الدار النموذجية، بيروت- صيدا الطبعة: الخامسة، 1420هـ- 1999م.
- (33) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لمحمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ) المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي الناشر: دار الكتاب العربي -بيروت الطبعة: الثالثة 1416هـ.
- (34) معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكرياء الفزويبي الرازي، أبي الحسين (المتوفى: 395هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر عام النشر: 1399هـ- 1979م.
- (35) مفاتيح الغيب لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي -بيروت الطبعة: الثالثة- 1420هـ.
- (36) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ) الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان -دط/دت.
- (37) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام ل حمود بن أحمد بن فرج الرحيلي. عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، 1424هـ.
- (38) نبراس الوصول إلى منارة المقاصد الإلهية وتحصيل هدي الرسول (صلى الله عليه وسلم) . دار الضحى بالجلفة الجزائر- الطبعة الأولى/ 1440هـ، الطبعة: الثانية عشر، 1419هـ.
- (39) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول لحافظ الحكيم . حققه عمر بن محمود أبو عمر الناشر: دار ابن القيم -الدمام-السعودية الطبعة: الأولى، 1410هـ.

الهوامش:

- 1 قال تامر محمد محمود متولي في منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة (ص 475): "وهذه ملاحظة دقيقة من الشيخ رشيد، فإن العبادة شيء زائد عن مجرد الخضوع والتذلل".
- 2 تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (1/ص48).
- 3 الصارم المسلول على شاتم الرسول ت الحلواني (ص 375).
- 4 رسالة التوحيد للدهلوي (ص 46-47).
- 5 معجم مقاييس اللغة ط دار الفكر (4/355).
- 6 مختار الصحاح ت محمود خاطر (ص 467).
- 7 وقد جاءت هذه المادة في القرآن الكريم والسنة النبوية بتعاريف متعددة في أوزان الفعل والأزمنة والأسماء.
- 8 تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص 216).
- 9 نقلا من: النهاية في غريب الحديث والأثر (3/259).
- 10 حديث صحيح: رواه أبو داود في السنن - كتاب اللباس - باب: ما جاء في الكبر (4/ص59 - ح4090). وفي لفظ لمسلم في الصحيح - كتاب البر والصلة - باب تحريم الكبر (4/ص2023 - ح2620): "العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبتة". قال الإمام النووي في شرحه على مسلم (16/ص173): "ومعنى ينازعني يتخلق بذلك فيصير في معنى المشارك وهذا وعيد شديد في الكبر مصرح بتحريمه".
- 11 تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص 216-218).
- 12 تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (2/ص826).
- 13 ينظر: مقال بعنوان: "أثر عقيدة التوحيد في التنمية الاجتماعية" للكاتب: الشهراني سعد علي محمد . منشور في مجلة الدراسات الإسلامية المجلد 8، العدد 2، بتاريخ: 15-06-2020. على الرابط:
<https://www.asjp.cerist.dz/en/downArticle/454/8/2/116699>.
- 14 ينظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم (ص 139).
- 15 بيان تلبس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (1/494).
- 16 لو صرف القلم في هذا الباب لبيان الشواهد الكونية الربانية لطال بحثنا فيه، لكن نكتفي بمقدار الوصف من معين البيان في الآيات العظام، فقد شهدت دلائل الكون وحركاته وأجرامه وغيرها على وحدانية الصانع الخالق العظيم سبحانه، وفي هذا السياق صاغ الإمام أبو الشيخ الأصفهاني في كتابه العظمة كلاما بديعا، أورده في فصل ترجمه بقوله: "ذكر نوع من التفكير في عظمة الله عز وجل، ووجدانيته، وحكمه، وتدبيره، وسلطانه" العظمة لأبي الشيخ الأصفهاني (1/ص271). وقال رحمه الله عنه -عن هيئة آدمي-: "إذا تفكر العبد في ذلك استتارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك، وظلمة الريب، وذلك إذا نظر إلى نفسه وجدها مكونة مكنونة مجموعة مؤلفة مجزأة منضدة مصورة مركبة بعضها في بعض، فيعلم أنه لا يوجد مدبر إلا بمدبر، ولا مكون إلا بمكون .. كما تنظر إلى حيطان البناء وتقديرها، وإلى السقف

المسقف فوقه بجذوعه .. فذلك هذا الجسم إذا نظرت إليه، وتفكرت فيه وجدت آثار التدبير فيه قائمة شاهدة للمدبر دالة عليه ..". ينظر بطوله.

* وقد ختمه بجملة طيبة فقال: "سبحان الذي أوضح دلالاته للمتفكرين، وأبدى شواهدة للناظرين، وبين آياته للعاقلين، وقطع عن المعاندين، وأدحض حجج الجاحدين وأعمى أبصار الغافلين، وتبارك الله أحسن الخالقين، والحمد لله مالك يوم الدين، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله رب العالمين" المصدر نفسه لأبي الشيخ الأصبهاني (1/ص287).

17 تفسير ابن كثير ت سلامة (2/ص24).

18 المصدر نفسه لابن كثير (2/ص6).

19 جاء في السنن أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة، لكن لا يثبت في ذلك حديث، من ذلك ما أسنده الطبراني في الأوسط (6/292 - ح6447) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نزلت سورة الأنعام ومعها كوكبة من الملائكة، تسد ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتقديس، والأرض ترتج"، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم".

20 قال الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب (12/ص471): "قال الأصوليون: هذه السورة اختصت بنوعين من الفضيلة.

أحدهما: أنها نزلت دفعة واحدة، والثاني: أنها شيعها سبعون ألفا من الملائكة، والسبب فيه أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين ..".

21 التحرير والتنوير (127/7).

22 المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (2/303).

23 مفاتيح الغيب للرازي (13/ص49).

24 يراجع كتاب: الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا - "الفصل الخامس في مقاصد القرآن في تربية نوع الإنسان وحكمة ما فيه من التكرار في الهداية وإعجازه بالبيان" (ص119).

25 ينظر كتابنا: نبراس الوصول إلى منارة المقاصد الإلهية وتحصيل هدي الرسول (صلى الله عليه وسلم) [دار الضحى بالجلفة الجزائر - الطبعة الأولى/ 1440هـ] (ص176).

26 رواه مسلم في (كتاب الإيمان -باب: باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار (ج1/43 -ح30). وهو عند البخاري في عدة مواضع.

27 ينظر: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول لحافظ الحكمي [حققه عمر بن محمود أبو عمر الناشر: دار ابن القيم -الدمام-السعودية الطبعة: الأولى، 1410هـ] (98/1-106).

28 مخرج في صحيح البخاري (6/ص115 -ح4776).

29 تفسير القرطبي (16/ص101).

30 الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري (4/ص259).

31 نقلا من: الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا (ص122).

- 32 نقلا من: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا (11/ص 207-208).
- 33 التبصير في معالم الدين للطبري (ص 126-127).
- 34 مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم (2/ص 463).
- 35 العقيدة في الله (ص 247).
- 36 الكشف المبدي (ص 280). بتصرف
- 37 الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي (ص 35).
- 38 العقل والنقل عند ابن رشد (ص 77) - بتصرف، وما بين العقوفتين زيادة مني.
- 39 ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه للمحاسبي (ص 210). والمعنى الأول: العقل غريزة، والمعنى الثاني: الفهم.
- 40 حجة الله البالغة (58/1).
- 41 إعلام الموقعين عن رب العالمين (5/ 544).
- 42 نقله العلامة ابن تيمية معزوا للإمام الرازي، ثم تعقبه بقوله: "ذكره لهذين النوعين كلام صحيح حسن في الجملة، وإن كان في ضمنه مواضع قصر فيها، مثل ما ذكره في دلالة حركة الفلك، وتفسير الآية، وتسبيح المخلوقات، واستدلال إبراهيم. ودليل الإحداث والاختراع يدل على ربوبية الله تعالى، ودليل الحكمة والعناية والرحمة يدل على رحمته، وقد افتتح الله كتابه العزيز بقوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [الفاتحة: 1-2]. وهذا أجود من طريق المتكلمين، طريقة الأعراض، وإن كان لم يستقص الكلام في دلالة ثبوت الصانع تعالى، ولم يفصل إحداث الجواهر وغير ذلك. ينظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية (500/1).
- 43 نقلا من: مباحث العقيدة في سورة الزمر لناصر بن علي عايض حسن الشيخ (ص 328).
- 44 العقل والنقل عند ابن رشد (ص 83).
- 45 بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (494/1).
- 46 نقلا من: مجموع الفتاوى لابن تيمية (488/10).
- 47 حديث صحيح: رواه أبو داود في السنن (1/230 - ح 873).
- 48 حاشية السندي على سنن النسائي (2/192).
- 49 مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم (2/ص 90).
- 50 نقلا من: الوابل الصيب - الكتاب العربي (ص 117).
- 51 الوابل الصيب - الكتاب العربي (ص: 56).
- 52 حديث صحيح: رواه الترمذي في السنن - أبواب الأمثال - باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (5/148 - ح 2863). وقال عقيبه: "هذا حديث حسن صحيح غريب".
- 53 الوابل الصيب - الكتاب العربي (ص: 56).
- 54 مجموع الفتاوى لابن تيمية (10/251).

- 55 وأعلى الناس منزلة في هذا المقام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أثنى الله عليه بذلك في قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: 1].
- 56 حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني (272/7).
- 57 يراجع: معجم المناهي اللفظية لبكر أبي زيد (ص 202).
- 58 يراجع: لوامع الأنوار البهية لشمس الدين السفاريني (1/ ص 345).
- 59 نقلا من: شرح العقيدة الواسطية للهراس (ص 219-225).
- 60 المرجع نفسه للهراس (ص 221).
- 61 المرجع نفسه للهراس (ص 225-226).
- 62 نقلا من: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار لأبي الحسين العمراني (1/ ص 59).
- 63 تروي عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: "لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب..." الحديث. مخرج في صحيح البخاري (4/ 115 - ح 3231).
- 64 يذكره أصحاب السير من دون إسناد: ينظر مثلا: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون للحلي (507/1).